وقد وطّد الرجاء العالم المذكور بالرجوع السنة القادمة لاستئناف الحفريات وسنُطلع القرّاء على ما يتوصل اليه

المقدسيّ وجغرافيّة سوريّة

في القرن العاشر للميلاد

نظر للاب هنري لامنس مدرّس الجغرافية الشرقيّة في المكتب الشرقيّ

المقدسي من افضل كتبة الجغرافيّة بين قدماء العرب فنتّخذهُ كمثال يوقفنا على ما بلغهُ اولئك الائمّة من الكمال في هذا الفنّ واخصّ ما نطلبهُ منهُ المعلومات التي اثبتها في كتابهِ عن سوريّة وطنهِ كما عرفها في زمانهِ اعني في القرن العاشر للمسيح. وهذا ما حدا بنا الى ارصاد مقالةٍ خاصّة للنظر في تأليفهِ

١ المقدسي وتأليفهُ

ليس المقدسي اوّل من تولّى وصف الشام لكنّهُ يفوق على من تقدّمهُ بوفرة معلوماتهِ وبحسن اسلوبهِ. والحقّ يقال انهُ تحرّى في عملهِ طريقةً نظاميّة تجعل تأليفهُ في مقام رفيع

ولد شمس الدين ابو عبدالله محمّد بن احمد بن ابي بكر البنّاء نحو السنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) في القدس الشريف فدُعي لذلك بالمقدسي وهو الاسم الذي ندعوهُ بهِ اختصاراً في ما يأتي. وكان جدّهُ مهندساً بارعاً في الشام وهو الذي ابتنى ميناء عكا كما افادنا حفيدهُ اذ قال فيهِ (ص ١٦٢ و ١٦٣):

« لم تكن (عكا) على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وقد كان رأى صور ومَنَعتها واستدارة الحائط على بيناها فاحبّ ان يتّخذ لمكانها مثل ذلك الميناء فجمع صنّاع الكورة وعرض عليهم ذلك فقالوا: لا يتندي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان. ثمّ ذُكر لهُ جدُّنا ابو بكر البنّاء وقيل: ان كان عند احد علمُ هذا فعندهُ. فكتب الى صاحبهِ على بيت المقدس ان ينهضهُ اليهِ. فلمّا صار اليهِ وذكر لهُ ذلك قال: هذا امرٌ هيّن عليّ بفلق الجُصّ الغليظ. فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البرّي وخيّط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الترب عظيماً ثم بنى عليها

بالحجارة والشيد وجعل كلّما بنى خمس دواسر ربطها بالمدة غلاظ ليشتدّ البناء. وجُعلت القلّق كلّما ثقلت ترك حتّى اذا علم انّها قد جلست على الرمل تركها حولًا كاملًا حتّى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك كلّما بلغ البناء الى الحائط القديم داخلهُ فيهِ وخيّطهُ بهِ. ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل البناء وتجرّ السلسلة مثل صور »

تعاطى المقدسيّ في اوّل امرهِ التجارة وتجشّم لذلك اسفارًا اعدّتهُ للدروس الجغرافيّة. وكان يشعر في قلبهِ ميلًا عظيمًا الى معرفة البلدان ولم يزل يقوى فيهِ ميلهُ الى أن انقطع الى ذلك الفنّ بتمامهِ فطاف كل بلاد الاسلام اللهمّ الّا السند والاندلس. ثم باشر نحو السنة ٩٨٥ تصنيف كتابهِ فألّفهُ كمالهُ بعد ثلاث سنوات. أمّا سنة وفاتهِ فلا تزال مجهولة وكذلك تفاصيل ترجمتهِ لا نعلم منها الّا القليل مما اثبتهُ عن نفسهِ في مطاري كتابهِ الذي دعاهُ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ومن البديهيّ انّ الكاتب أحكم القسم المختصّ ببلاد الشام مسقط رأسهِ فتوسّع فيهِ. لكنّ تأليفهُ كلهُ يستحقّ الثناء. قال المستشرق غلدميستر (Gildmeister) « انّ المقدسيّ قد امتاز بين بقيّة ارباب اوصاف البلدان بكثرة ملحوظاتهِ وسعة نظرهِ (١) ». وقال سپرنغر (Sprenger): « ليس من سائح تجوّل في البلاد كما تجوّل المقدسيّ ولا احد لحظ ما لحظهُ او روى معلوماتهِ مثلهُ بنظام وترتيب ». وكذلك العلامة برييه دي ميناز (B. de Meynard) يعدّ تأليفهُ ذا قيمة لا تُقدّر (٢). وكل هذه الاقوال عين الصواب. أمّا حُسن الاسلوب فلهُ المقام الاوّل فيهِ بين وصفائهِ السابقين والذين اتوا بعدهُ لم يبلغوا شأوهُ بل زادوا تقهقرًا. ومن تصفّح كتاب المقدسيّ استحسن طريقتهُ في الكتابة فانك لا تراهُ يضيف الى عملهِ الاضافات الناقلة والاستطرادات الزائدة كما يفعل ابن رُسته وابن الفقيه وكذلك لم يدخل في اوصافهِ تعداد المراحل او مبالغ الخراج على طريقة مملّة شأن ابن خرداذبه في تأليفهِ. هذا فضلًا عن حسن نظر واصالة رأي مع ما يُبدي لوطنهِ من الحبّ الواجب دون ان يبخس حقوق بقيّة البلاد

---

١) في المجلّة الفلسطينيّة الالمانية (ZDPV, VII, p. 143)

٢) اطلب المجلّة الاسيويّة (JA, 1879 ٦, 271) وكتاب بروكلمان في آداب العرب (Brockelmann: *Gesch. d. arab. Litter.*, I, 230) ولاسيّما مقدّمة الدكتور دي غوية على القسم الرابع من مجموع جغرافيي العرب

ومما يستحبُّهُ القارئ فوق ذلك في مطالعة تأليف المقدسيّ حرصهُ على سياق الاخبار وتنسيق الاوصاف فترى الابواب متواصلة على احسن طريقة واضبط اسلوب على خلاف ما ترى في كُتب من تقدَّمهُ. مثال ذلك انهُ في كلامهِ عن كورة قِنَّسرين جعل قصبتها حلب. وقد احسَّ بان القارئ يعترض عليهِ في ذلك فسبق بالردّ على اعتراضهِ بما حرفهُ (ص ١٥٦):

« فان قال قائل. لِمَ جعلتَ قصبة الكورة حلب وهيَ مدينة على اسمها. قيل لهُ: قد قلنا انَّ مثل القصبات كالقوّاد والمدن كالجند ولا يجوز ان تُجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجميع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجنادًا لمدينة خربة صغيرة. فان قال: هلَّا استعملتَ هذا القياس في شيزر فاضفتَ اليها اصطخر ومدحا. قيل: لمَّا وجدنا باصطخر مدنًا احدقت بها وتباعدت عنها استحسنَّا ما فعلناهُ ثَمَّ والاستحسان في علمنا هذا ربَّما غلب القياس

امَّا طبعة هذا الكتاب فحسبُنا القول بان الذي تولَّى امرها انَّما هو احد افاضل المستشرقين العلَّامة دي غوي. وكان طبعها اوَّلًا سنة ١٨٧٧ ثم نفدت هذه الطبعة بعد مدَّة فاضطرَّ جناب ناشرها الى اعادة طبعها فانجز العمل في السنة المنصرمة. وفي ذلك دليل واضح على اقبال العلماء على هذا الكتاب وقلَّما تجد كتابًا علميًّا عربيًّا يحتاج الى طبعتين. ومن محاسن هذه الطبعة المستحدثة انَّ صاحبها اثبت فيها عدَّة فوائد جديدة استفادها من درسهِ الخاصّ ومن ملحوظات العلماء فجاءت هذه الطبعة الثانية غاية في الحسن سواء كان لضبط المتن (١ او لدقَّة الحواشي التي علَّقها في ذيل كل صفحة من الكتاب فيا ليت ادباء الشرق يحذون في طبعهم للتآليف القديمة حذو المستشرقين في طباعتهم فيخدموا العلم كما فعل ناشر جغرافيَّة المقدسي

ولكن دعنا الآن نواصل بحثنا في التأليف الذي نحن بصددهِ

٢ بلاد الشام على عهد المقدسيّ

اوَّل ما افتتح بهِ المقدسيّ كتابهُ نظرٌ عموميّ في احوال الشام وهذه المقدِّمة حسنة اجمالًا لولا انَّ المؤلف افقدها شيئًا من فوائدها بزخرف سجعها والاولى بمثل هذه المقدِّمات أن تُكتَب بسذاجة وكلام بعيد عن كلّ تصنُّع لئلَّا يحيد الفكر عن الجوهر

١) قد ضبط جناب الدكتور اسم سَلَمِيَّة بادة شرقيّ حمص بتشديد الياء المثنَّاة وعندنا انَّ الصواب كتابتها بتخفيف الياء كما هو شائع في تلك الجهة

فينصرف الى الاعراض لاسيما اذا اتسع الكتبة في السجع وتجاوزوا الحدود كما فعل ابن جُبَير. فدونك ما كتب المقدسي في وصف الشام (ص ١٥١):

«اقليم الشام» جليل الشأن دار النبيين. ومركز الصالحين. ومعدن البدلاء. ومطلب الفضلاء. به القبلة الاولى. وموضع الحشر والمسرى. والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايُّوب وبئرهُ ومحراب داؤد وبابهُ وعجائب سليمان ومدنهُ وتربة اسحاق وأمه ومولد المسيح ومهدهُ وقرية طالوت وحجرهُ ومقتل جالوت وحصنهُ وجبُّ ارميا وحبسهُ ومسجد اوريا وبيتهُ وقبَّة محمَّد وبابهُ وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريَّا ومسرك يحيى ومشاهد الانبياء وقرى ايُّوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صدّيقا وقبر موسى ومضجع ابراهيم ومقبرتهُ ومدينة عسقلان وعين سلوان. وموضع لفتان ووادي كنعان. ومدائن لوط وموضع الجنان... ثم بيه دمشق جنَّة الدنيا. وصُغَر البصرة الصغرى. والرملة البيِّنة وخبزها الحوَّارى واليلًا الفاضلة بلا لأوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء: وجبل يصرى وكرومهُ فلا تُفنى وطبريَّة الجليلة بالدخل والقرى ثم البحر يمدُّ على طرفيه فالحمولات فيه اليه ابدًا وبحر الصين متَّصل بطرفه الاقصى لهُ سهل وجبل واغوار واشباه والبادية على نحوهِ كالرقاق منهُ الى تيماء. وبه معادن الرخام وعقاقير كلّ دواء. وبيَّار وتجَّار ولباقة وفقهاء وكتَّاب وصنَّاع واطبَّاء»

فترى من هذا الوصف انَّ بلاد الشام كانت وقتئذٍ غنيَّةً بمحصولاتها مُثريةً بتجارتها تزينها المدن العامرة والدساكر الخصبة لم تزل بحسن موقعها وعظم شأنهـا على ما كانت عليه سابقًا (اطلب المشرق ص ١٠٩) تحفظ مقامها الخطير بين الاقطار. وكانت الشام مشحونة بالديار الواسعة والمنازل العامرة حتى يكاد الناظر يسهو عنهـا لكثرتها. قال المقدسي (ص ١٥٥ راجع ايضًا ١٧٦):

«وفي هذا الاقليم قرىً اجلّ واكبر من اكثر مدن الجزيرة (١ مثل داريًّا وبيت لهيا وكفر سلَّم وكفر سابا غير انَّهـا على رسوم القرى مسدودة فيها وقد قلنا انَّ عملنا موضوع على التعارُف»

وكان صاحب هذه الاسطر قد ألحق بوصفهِ للشام خارطةً كما فعل بسائر الاقاليم. الَّا انَّ هذه الخارطة لم تُنشر بالطبع فلا يسعنا الحكم عنهـا لنوجّه اليه الثناء او اللوم كفعلنا بالخوارط التي رسمها كتبة العرب

وبعد هذه المقدَّمات ترى المقدسيّ يستقري كوَر الشام واحدةً واحدة مباشرة من

١) يريد جزيرة العرب كما ارتأى بصواب المسيو دي غوي

جهة الشمال وهو يحصيها ستّة: قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة. وهذه الكور توافق الخمسة الأجناد التي قُسمت اليها بلاد الشام منذ اوّل الفتح الاسلامي. والكورة الاولى اي قنسرين تنطبق مع ولاية حلب الحاليّة تقريباً. لكنّنا لا نفهم كيف استطاع المقدسيّ (ص ١٥٤) أن يُدخل فيها جوسيّة الواقعة على مسافة ستّ ساعات جنوبيّ شرقيّ حمص. ولعلّ النسّاخ تصرّفوا بتقديم بعض الاسطر او تأخيرها فشوّشوا الترتيب. امّا كورة الاردن فكانت تشمل في جملة مدنها طبريّة وقدس وصور وعكا واللجّون وكابل وبيسان واذرعات وذلك ما يوافق من انحائنا الحاليّة كل متصرفيّة عكّا وقسماً من متصرفيّة نابلس وقائمقاميّة صور وبعض متصرفيّة حوران. امّا كورة الشراة فانّ المقدسيّ (ص ١٥٥) قد جعل «قصبتها صُغَر ومدنها مآب ومعان وتبوك وأذرُح ووَيْلة ومَدْيَن». وصُغَر هذه هي المذكورة في التوراة كان موقعها جنوبيّ بحيرة لوط وقد استولى عليها الخراب منذ زمن طويل وسنعود الى ذكرها. هذا محصّل تقسيم كوَر الشام كما كانت في القرن العاشر

وها نحن نستقري كلّ كورة لنرى ما يقول المقدسيّ فيها. قال عن حلب (ص ١٥٥):

«وامّا حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي اهلها ظرف ولهم يسار وعقول مبنيّ بالحجارة عامر. في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان. والجامع في البلد. شرجم من حجر تُوَيْق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد والقصبة ليست بكبيرة الّا انّ بها مستقرّ السلطان لها سبعة ابواب باب حمص باب الرقّة باب قنسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطّيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود»

وكانت انطاكية في ايّام المقدسيّ قد انحطّت عن رتبتها السابقة بعد تقدّمها على كل مدن الشام. ولذلك يكتفي الكاتب بذكرها دون وصفها. وعلى خلاف ذلك حمص فانها كانت نالت نصيباً وافياً من الفخر قال المقدسيّ في تعريفها (ص ١٥٦):

«حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج اكثر شرجم من ماء المطر ولهم ايضاً نهر ولما فتحها المسلمون عمدوا الى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً. عنده بالسوق قبّة على راسها شبه رجل من نحاس واقف على سكة تدبرها الارياح الاربع وفيه اناويل لا تصحّ والبلد شديد الاختلال بتداعٍ الى الخراب»

ويلوح من قول المقدسيّ (ص ١٥٦) ان تدمر كانت بعد في عهده على حالة من العمران « قرية من البادية رحبة طيّبة ». وهاك وصف دمشق قال (ص ١٥٦ و١٥٧):

« دمشق هي مصر (١ الشام ودار الملك ايام بني امية وثمّ قصورهم وآثارهم بفياض خشب وطين وعليها حصن أحدث وانا به من طين اكثر اسواقها مغطّاة. ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن وهو بلد قد خرقتهُ الانهار. واحدقت به الاشجار. وكثرت به الثمار. مع رخص اسعار. وثلج واضداد لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فوّاراتها ولا احزم من اهلها. الذي عرفتهُ من دروبها باب الجابية باب الصغير باب الكبير باب الشرقي باب توما باب النهر باب الحاملين وهي طيّبة جدًّا. غير انّ في هوائها يبوسة واهلها غافلة وثمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيّقة وازقّتها غامّة واخبارها ردية والمعايش بها ضيّقة تكون نحو نصف فرسخ في مثلهِ في مستوى »

ثم يُردف المقدسيّ كلامهُ بوصف الجامع الاموي الشهير المعدود كاحدى عجائب دمشق. ووصفهُ اقدم ما ورد الينا في ذلك البناء العظيم ولولا طولهُ لاثبتناهُ هنا وهو يعرّفنا بمحاسن ذلك العمل الجليل ورونقهِ البهيّ قبل أن يُصاب ثلاثًا بمصاب الحريق ونحن نكتفي بذكر رواية نقلها المؤلف عن نفسهِ حيث قال (ص ١٥٩):

« قلتُ يومًا لعمّي: يا عمّ لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ولو اصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وافضل. قال: لا تغفل بنيّ انّ الوليد وُفّق وكُشف لهُ عن امر جليل وذلك انهُ رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعًا حسنة قد أفتن زخارفها واكثر ذكرها كالقمامة وبيعة لُدّ والرها فاتّخذ للمسلمين مسجدًا لشغلهم بهنّ وجمالهُ احد عجائب الدنيا ألا ترى انّ عبد الملك لما رأى عظم قبّة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى »

وهو قول جليل يدلُّ على ما بلغهُ فنّ البناء والهندسة في بلاد الشام بين اهل الذمة

اما المدن الساحليّة فانها على ما يظهر كانت قليلة الشان بالنسبة الى حمص ودمشق فانّ المقدسيّ لا يكاد يزيد على ذكر اسمائها. حيث قال (ص ١٦٠): « صيداء وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان وكذلك طرابلس الّا انها اجلّ ». بخلاف بانياس فانها

(١) يريد بالمصر هنا المدينة الكبيرة والحاضرة. كما يقال من الكوفة والبصرة انهما مصرا العراق او العراقان »

كانت في ذلك العهد مدينـــة عامرة واسعة الثروة بما يأتيها من غلال كورة الحولة التي يدعوها المؤلف معدن الاقطان. قال (ص ١٦٠):

« ومدينة بانياس على طرف الحولة وحدّ الجبـل ارض وارفق من دمشق واليها انتقل اكثر اهل الكنور لمّا أُخذت طرسوس وزادوا فيها وهي كل يوم في زيادة لهم ضر شديد البرودة يخرج من تحت جبل الثلج وينبع وسط المدينة وهي خزانة دمشق رفقة باعلاها بين رساتيق جليلة غير انّ ماءها رديّ »

ومن المدن التي افاض المؤلف في وصفها طبريّة وكانت اذ ذاك اعظم خطرًا منها اليوم مع انطباق وصفها اجمالًا مع وضعها الحاليّ. قال (ص ١٦١):

« طبريّة قصبة الاردن وبلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل والبحيرة وهي ضيّقة كربة في الصيف مؤذية طولها نحو من فرسخ بلا عرض وسوقها من الدرب الى الدرب والمقابر على الجبل. بها ثماني حمّامات بلا وقيد وبياض عدّة حارّة الماء والجامع في السوق كبير حسن قد فُرش ارضهُ بالحصى على اساطين حجارة موصولة. ويقال « اهل طبريّة شهرين يرقصون وشهرين يقسقمون وشهرين يثاقفون وشهرين عُراة وشهرين يزمّرون وشهرين يخوضون » يعني يرقصون من كثرة البراغيث ويلوكون التبن ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذاب وعراة من شدّة الحرّ ويصوّن قصب السكّر ويخوضون الوحل. واسفل البحيرة جسر عظيم عليه طريق دمشق وشرجم منها عليها بما يدور قرى نخيل والسفن فيها تذهب وتجيء وماء الحمامات والدواميس اليها لا يستطيبها الغرباء كثيرة الاسماك خفيفة الماء والجبل مطلّ على البلد شاهق »

والجسر الذي يذكرهُ الكاتب ليس هو على ما نظن جسر المجـامع الذي يُرى اليوم جنوبًا بل يريد جسرًا آخر خربًا تُرى بقاياهُ عند مخرج الاردن من بحيرة طبريّة. وكان اكبر من جسر المجامع واقرب من طبريّة. ويتّضح من وصفهِ ايضًا ان الطريق من دمشق الى طبريّة كانت تقطع ذلك الجسر مارّة بأفيق سواء وبينهما بريد واحد (ص ١٩٠) وهكذا كانت تسهل المواصلات مع طبريّة دون عطفة جسر المجامع. وهذا ما يحملنا على مخالفة رأي المسيو دي غوي الذي ارتأى انّ الجسر المذكور هو جسر المجامع (ص ١٦١ في الحاشيـــة h). ويؤخذ ايضًا من كلام المقدسيّ انّ ملاحة بحيرة طبريّة كانت ذات بال ولعلّ الكورة كانت في نموّ وعمران. اما اليوم فلا تكاد ترى على بحيرة طبريّة سوى قوارب قليلة. والامل معقود بان سكّة الحديد الحميـديّة سوف تعيد قريبًا الى هذه المحالّ حركتها السابقة وتقدّمها

ثم اتبع المؤلف وصفهُ بذكر بلاد فلسطين وقد قدَّم عليهِ تعريف عكَّا وميناها الخطير المشابه بحسنهِ مينا صور الذي وصفهُ بما يلي (ص ١٦٣):

« وصور مدينة حصينة على البحر بل فيهِ يُدخَل اليها من باب واحد على جسر واحد قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيهِ المراكب كل ليلة ثم تجرّ السلسلة التي ذكرها محمَّد بن الحسن في كتاب الاكراه ولهم ماء يدخل في قناة معلَّقة وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص وبين عكا وصور شبه خليج وانذلك يقال « عكا حذاء صور الَّا انك تدور » يعني حول الماء »

ولم يكن المؤلف لينسى وطنهُ بيت المقدس فافرد لهُ وصفاً مطوَّلاً يستشفُّ من ورائهِ حبّ الكاتب لمسقط رأسهِ. واورشليم كانت اذ ذاك كما هي اليوم مدينة معتبرة ولذلك احببنا ان ننقل قسماً من كلامهِ. وليس شاهد ادلّ على فضل المقدسيّ من هذه المنقولات التي نثبتها في كلامنا مع حُسن بيانها لاحوال الشام في عصره. قال بعد ذكره للرملة قصبة بلاد فلسطين (١٦٥—١٦٧):

« بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقابن والفرما لا شديدة البرد وليس بها حرّ وقلَّ ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي ابو القسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلتُ: سجسجٌ لا حرّ ولا برد شديد. قال: هذا صفة الجنَّة. بناؤهم حجر لا ترى احسن منهُ ولا اتقن من بنائها ولا اعفّ من اهلها ولا اطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من مشاهدها. عنبها خطير. وليس لمتّنتها نظير. وفيها كلّ حاذق وطبيب. واليها قلبُ كل لبيب. ولا تخلو كل يوم من غريب. وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار ابي يحيى ابن جرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سئلتُ: اي بلد اجلّ قلت: بلدنا. قيل: فايُّما اطيب. قلت: بلدنا. قيل: فايُّما افضل. قلت: بلدنا. قيل: فايُّما احسن. قلت: بلدنا. قيل: فايُّما اكثر خيرات. قلت: بلدنا. قيل. فايُّما اكبر. قلت بلدنا. فتعجب اهل المجلس من ذلك وقيل: انت رجل محصّل وقد ادّعيت ما لا يُقبَل منك وما مثلك الَّا كصاحب الناقة مع الحجَّاج. قلتُ: امَّا قولي « اجلّ » فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها. ومن كان من ابناء الآخرة فدعتهُ نفسهُ الى نعمة الدنيا وجدها. واما طيب الهواء فانهُ لا سمَّ لبردها ولا اذى لحرّها. واما الحُسن فلا ترى احسن من بنائها ولا انظف منها ولا اتزه من مسجدها. اما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادَّة كالاترجّ واللوز والرطب والجوز والتين والموز. واما الفضل فلانَّها عرصة القيامة ومنها المحشر واليها المنشر. . . فتحوي الفضل كلهُ. واما اكبر فالخلائق كلّهم يُحشَرون اليها فايّ ارض اوسع منها. فاستحسنوا ذلك واقرُّوا بهِ »

ويلي فلسطين ذكر الكورة السادسة وهي كورة الشراة دُعيت بذلك باسم جبل الشراة الذي يمرُّ بها. وقد سبق لنا في احد اعداد المشرق الاخيرة (ص ٥٧٧) ما اكتشفهُ في تلك الجهات الدكتور لويس موسيل. وها نحن نثبت هنا نصًّا مما جاء في تأليف المقدسيّ عن بعض بلدانها. قال في وصف صُغَر التي اشرنا آنفًا الى موقعها جنوبي بحيرة لوط في موقع تنيف حرارتهُ على لظى كل البلاد (ص ١٧٨):

« صُغَر اهل الكورتين يسمُّونها صقَر. وكتب مقدسي الى اهلهِ: من صقَر السفلى الى الفردوس الاعلى. وذلك انهُ بلد قاتل الغرباء رديُّ الماء. ومن ابطأ عليهِ ملك الموت فليرحل اليها. ولا اعرف في الاسلام لها نظيرًا في هذا الباب ولقد رأينا بلدانًا وبيئة ولكن ليس كهذه اهلها سودان غلاظ وماؤها حميم وكانها جحيم الا البصرة الصغرى والمنجر المُريح وهي على البحيرة المقلوبة وبقيَّة مدائن لوط وانما نجت لانَّ اهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة »

ودونك ما كتب عن مآب (ص ١٧٧):

« مآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والاعناب قريبة من البادية ومؤتةُ من قراها وثمَّ قبر جعفر الطيَّار »

ومؤتة المذكورة هنا موقعها معروف على بُعد نحو اربع ساعات جنوبيّ الكرك. وهذا دليل على موقع مآب لكنهُ غير كافٍ للحكم البات في ذلك كما سبق لنا القول في المشرق (ص ٥٨٠). امَّا الكرك فانَّ المقدسيّ لم يرَ اسمها ولا دفعة واحدة بخلاف مآب التي يكرّر اسمها ويعدّها كمكان ذي شأن. وما ادرانا انَّ الكرك تسمى مآب كما يُشعر بذلك اسمها اليوناني القديم فان البوزنطيين كانوا يسمُّونها كركوبا (Χαράκμωβα)

وليست مآب وحدها التي باد اثرها في تلك الناحية التي كانت يعدُّ عامرةً في أيام المقدسيّ. ومما ذكرهُ أذرُح الشهيرة بمعسكرها الروماني وفيها جرت حكومة الحكَمَين من اعظم حوادث الدولة الأمويَّة (١. وبقيت أذرح في مقامها الصالح الى القرن الثاني عشر وهي اليوم خراب وقد زرنا بقاياها في شهر آب من السنة ١٩٠٥ عند رجوعنا من عيون موسى ومدينة بترا التي كان الخراب استولى عليها قبل عهد المؤلف بزمن طويل فلم يتعرَّض لذكرها

١) راجع مقالاتنا في اخبار الخليفة معاوية (Etudes sur le Calife Moa'wia)

*

قد تبعنا المقدسيّ في تعريفهِ لاعظم مدن الشام الباقية في زمنهِ طبقاً لاوصافهـا الطبيعيَّة وتقاسيمها النظاميَّة. ولا نشكّ انَّ القـارئ قدّر الكاتب قدرهُ بما قلنا من نصوصهِ المتعدّدة. وهي كما ترى كافية لتجعل لهُ مقاماً ممتازاً بين ارباب رسوم البلدان. الّا انَّ للمقدسيّ فضلاً آخر بما الحقهُ بهذا القسم وهو فصلٌ علميّ دعاهُ « مجمل شؤون هذا الاقليم » واردعهُ عدَّة ملحوظات لتعريف جغرافيَّـة الشام الطبيعيَّة والاقتصاديَّة والنسبيَّة وفي هذا الفصل ايضاً معلومات اخرى في العادات والنقود والاوزان والمكاييل ومال الخراج على مقتضى عادة كل كورة. وعندنا انَّ المؤلف يظهر في هذا الفصل من المزايا الفنيَّة وحسن النظر الجغرافيّ الذي يرقّي مقامـهُ بين الكتبة ولهُ من الملحوظات ما لو كُتب في زماننا لنال بسببهِ الكاتب ثناء . وهو القسم الذي لاجلهِ يطريْ المستشرقون عمل المقدسيّ ويعظمونهُ (١ . فمن ذلك ما روينا عنهُ في تقاسيم بلاد الشـام ما يشهد لهُ بثقوب العقل ودقَّة النظر (٢

والكاتب يفتتح كلامهُ بوصف احوال الجوّ في بلاد الشام كما كان حقيقاً بهِ قال (ص ١٧٩):

« هو اقليم متوسّط الهواء الّا وسطهُ من الشراة الى الحولة فانهُ بلد الحرّ والنيل والموز والنخيل وقال لي يوماً فـلّان الحكيم ونحن باريحاء: ترى هـذا الوادي . قلتُ: بلى . قال: هو يمتدُّ الى الحجاز ثم يخرج الى اليـامة ثم الى عُمان وهجَر ثم الى البصرة ثم الى بغـداد ثم يصعد الى سيرة الموصل الى الرقَّة وهو واديّ الحرّ والنخيل واشدُّ هذا الاقليم برداً يطبكّ وما حولها. ومن امثالهم قيل للبرد: اين نطلبك. قال: بالبقاء. قال: فان لم نجدك. قال: يطبكّ بيتي: وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلّما علا منهُ نحو الروم كان اكثر اشجاراً وثماراً وابرد هواء وما سفل منهُ فانهُ افضل واطيب والذّ ثماراً واكثر نخيلاً ليس فيهِ حرٌّ يـاقر فيهِ »

وهذا القول الاخير غاية في الصواب فان المقدسيّ لم يكن ليصادق على مذهب

١) اطلب تاريخ الاداب الشرقية لفون كريمر (Von Kremer: *Culturgeschichte* II, 429-433)

٢) وقد تقل مع هذا روايات ضعيفة ومزاعم غريبة تجدها في غيره من الكتبة كابن الفقيه وسلم عدد الجغرافيين من ذلك قولهُ (ص ١٢٤): سُئل ابن العبّاس عن الجزر والمدّ قال: ملك موكّل بقاموس البحر اذا وضع رجلهُ فاض فاذا رفع رجلهُ غاض الماء

اسطرابون ومن ارتأى رأيهُ بانَّ العاصي يمكن ركوبهُ على الاقل من انطاكية. وهو زعم لا صحَّة لهُ حتى مع حصر الكلام وتخصيصهِ بهذا القسم الصغير فانَّنا قد تحقَّقنا بنفسنا الامر اذ سرنا في وادي العاصي من انطاكية فوجدناهُ لا يصلح لمرور القوارب

ومن الظواهر الجويَّة التي ذكرها المقدسيّ الندى في انحاء الشام وخصوصاً في بعض جهات فلسطين فقال (ص١٨٦): «ينزل على فلسطين في كلّ ليلة الندى في الصيف اذا هبَّت الجنوب حتى يجري منهُ مزاريب المسجد الاقصى». وممَّا رأيناه بالعيان أنَّنا بتنا في دنبان بين انكرك ومادبا في شهر آب سنة ١٩٠٥ تحت ظل السماء فلمَّا قمنا صباحاً شعرنا بالندى قد بلَّل اغطيتنا حتى امكننا عصرها لوشتنا. ومثل هذا الندى يسقط في الناصرة من عمل الجليل وفي بزيزا في ناحية انكورة (لبنان). ووفرة الندى كما هو معلوم من البركات التي يستدرُّها الناس من السماء ويمدبها الكتاب الكريم كالغيث والمطر

وقد اعقب المقدسيّ ذكر الظواهر الجويَّة بوصف التجارات اي الغلات الصادرة من الشام. وفي تعدادهِ دليل واضح على تقدُّم التجارة والصناعة في ذلك العهد كما يشهد على كثرة تلك الصادرات وثمنها (١. وها نحن نورد كلامهُ لفائدتهِ (ص ١٨٠—١٨١):

«والتجارات به (اي الشام) مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزيب والحرنوب والملاحم والصابون والفوط. ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزيب الينوفي والدوريّ عاية والتفَّاح وقضم قريش الذي لا نظير لهُ والمرايا وقدور القناديل والإبَر. ومن اريحا نيل غاية. ومن صُغَر وبيسان النيل والتُّمور. ومن عمَّان الحبوب والحرقان والسل. ومن طبريَّة شقاق المطيارح والكاغد وبزّ. ومن قدس الثياب المنيَّرة والبلسيَّة والحبال. ومن صور الكرّ والحرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن عكَّا قلوب اللوز. ومن بيسان الرزّ. ومن دمشق المصور والبلسي ودبياج ودهن بنفسج دون والصفريَّات والكاغد والجوز والقطين والزيب. ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمنرة. ومن بعلبك الملابن. ولا نظير لقطين وزيت الاتفاق وحوَّارى وبازر الرملة ولا لمنَّفة وقضم قريش وينوفيّ ودوريّ وترياق وترذوغ وسُبح بيت المقدس. واعلم انهُ قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئاً لا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا توجد الَّا هنا والسبع الثانية غريبة في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع الَّا هنا وقد يجتمع اكثرها في غيرهـا مثل: قضم قريش والمنَّفة والينوفيّ والدوريّ والخاص الكانوريّ وتين البابيّ والدمشقيّ والقلقاس والجمَّيز والحرنوب والمكُّوب والنَّاب وقصب الكرّ والتفاح الشابيّ

١) راجع في المشرق (٩: ٩١٤) مقالتنا في تجارة سواحل سوريَّة

والرُّطَب والزيتون والاترجّ والنيل والراسن والنارنج والأُتْرُج والتفاح والنبق والجوز واللوز والفليون والموز والساق والكرنب والكمأة والخرس والطريّ والثلج ولبن الجواميس والشهد وعنب العاصي والتين التريّ »

وكذلك عدَّد المعادن الشاميَّة وتعدادهُ مهمٌّ لشؤون الصناعة في زمانهِ . قال (ص ١٨٤):

« بهِ (اي إقليم الشام) معادن حديد في جبال بيروت وحلب مغرة جيّدة وبسمّان دونها وبهِ جبال حُمر يسمّى تراجها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمّى الحوّارة فيه ادنى صلابة يبيّض بهِ السقوف ويطيّن بهِ السطوح وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل وبالاغوار معادن كبريت وغيره . ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح مشور وخير العسل ما رعى السعتر بابليا وجبل عاملة واجود المُري ما حُمل باريحاء »

وهذا التعداد يدلُّ كما ترى على فقر بلاد الشام بالمعادن كما اشرنا اليهِ غير مرَّة (١

وللمقدسيّ اسطر قليلة كتبها في مجاري المياه في بلاد الشام تفيد معرفتها محبّي الاسفار قال (ص ١٨٤):

« ومياه هذا الاقليم جيّدة الّا ماء بانياس فانهُ يُطلق وماء صور بحمر وماء بيسان ثقيل وماء الرملة مريّ وماء نابلس خشن وفي ماء دمشق وابليا ادنى خشونة وفي الهواء ادنى يبوسة »

ولم يهُ المؤلف عن ذكر حمَّامات طبريَّة المعدنيَّة وحمَّامات الحمَّة قال (ص ١٨٥):

« وبطبريَّة عين تنفلي تمدُّ اكثر حمَّامات البلد وقد شُقَّ الى كل حمَّام منها نهر فبخارهُ يحمّي البيوت فلا يحتاج الى وقيد وفي البيت الاول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهّرون بهِ ومطاهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخَّن يسمّى الحمَّة حارّ من اغتسل فيهِ ثلاثة ايّام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبهِ جرَب او قروح او ناسور او اي علَّة تكون برأ باذن الله »

ومن غريب ما رواهُ (ص ١٨٤) في مجاري الانهار قولهُ عن بردى عند خروجهِ من دمشق فزعم « انهُ ينقسم قسمين بعض يتبخَّر نحو البادية وبعض ينحدر فيلقى نهر الاردن » . وبديهيٌّ انَّ نهر بردى ليس هو مطلقاً من سواعد الاردنّ . ومن مزاعمهِ ايضاً (ص ١٨٤) انَّ في بحيرة لوط جبالاً . وهو رأي تفرَّد بهِ المقدسيّ ولا اصل لهُ وكذلك يسمّي بحر القلزم « بحر الصين » ويطلق الاسم عينهُ على خليج العجم . وفي قولهِ دليل على اتساع تجارة الصين في زمانهِ وشيوعها في مدن بحر القلزم الساحليَّة . امَّا الجبال فقد

١) اطلب في كتابنا تسريح الابصار (٢ : ٢٠٧) مقالتنا في معادن لبنان

وصفها المقدسي وصفاً خفيفاً غير وافٍ بالمرام. ومما قال في لبنان (ص ١٨٨) انهُ كثير الاشجار والثمار المباحة ثم ذكر عبّادهُ. ويلوح من قولهِ فيهِ انَّ جنوب هذا الجبل لم يكن مأهولاً على عهدهِ

نيرى القرّاء من هذه التفاصيل سبب اعجاب المستشرقين بتأليف المقدسيّ فيا ليتَ كان وجد لهُ اخلافاً مثلهُ ذوي عقل ثاقب يفقهون الابحاث الجغرافيَّة فكان هذا العلم اصاب ترقياً عظيماً الّا انَّ اغلب الكتبة الذين جاؤوا بعدهُ كانوا دونهُ اللهمَّ الّا الشريف الادريسي

ومما استفادهُ القارئ ايضاً من هذا البحث كما نظنّ انهُ يرى ما طرأ على بلاد الشام من التقلّبات واختلاف الاحوال في اطوار التاريخ فمنها ما يزيد وينمو ومنها ما ينقص ويتقهقر على حسب كوارث الدهر. وهذا يلوح من درس كل الكتبة الجغرافيين من العرب فانهم وان لم يبلغوا شأو المقدسي الّا انهم تركوا لنا معلومات ثمينة تؤدّي بنا الى معرفة بلادنا في قرون شتى مع ما جرى فيها من الماجريات في نظامها وتجارتها وبقيَّة امورها مما يستفيد منهُ المؤرخ لاستظلاع احوال البلاد وادراك الحوادث الجارية فيها جيلاً بعد آخر

سيرة الحبر الطيّب الذكر

عبدالله قراعلي الماروني الحلبي

لقس نوما البودي نشرها بالطبع لاوّل مرَّة وعلَّق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي (تابع)

ولنرجع الى سيرته لنلّا اعيد الماضي فاقول: ان صلاته ونسكه وسهره ورشده للغير وطول اناته وتواضع اللبّ مع هذيذه كان دائماً يزيد ولا ينقص ومن حيث قمع الجسم بلغ الى هذا الحدّ من الضعف حتى انهُ اراد ان ينهض بين يديه الاثنين مقدار ثلاثة ارطال فما كان يقدر

ووقتئذٍ كان البطريرك يعقوب عواد وكان محبًّا للرهبنة ولعبدالله بالاكثر (١.

---

(١) لهذه الشهادة اهمية تاريخية لانها تخالف ما اعتاد المؤرخون تكرارهُ (اطلب سلسلة البطاركة ص ٤٦ و١٨٨ ومختصر تاريخ لبنان المخطوط لاطونيوس الينطوري وغيرها)